إتقان العمل.. بركة الدنيا وخير الآخرة

د. طه محمد القلا

مدرس الدعوة والثقافة الإسلامية بكلية أصول الدين والدعوة بطنطا - جامعة الأزهر الشريف.

إتقان العمل.. بركة الدنيا وخير الآخرة

د. طه محمد القلا

مدرس الدعوة والثقافة الإسلامية بكلية أصول الدين والدعوة بطنطا - جامعة الأزهر الشريف.

المحتوى

1- المقدمة

2-الإتقان في ميزان الإسلام:

3- المسلمون الأوائل وإتقان العمل:

4- الإتقان وبناء الحضارات:

5- البركة سر يصنعه الإتقان:

6- بين الإتقان والضمير الحي:

7- الشباب وثقافة الإتقان:

8- الخاتمة

1- مقدمة

في زمنٍ تتسارع فيه الخطى، وتتزاحم فيه المصالح، وتعلو فيه أصوات الشعارات على حقائق الأفعال، يبقى «إتقان العمل» قيمةً خالدة لا يبهت نورها، ولا تفقد بريقها مهما تبدّلت الأزمنة واختلفت البيئات.

إنّ إتقان العمل ليس مجرّد أداءٍ لواجبٍ وظيفي، ولا حركةٍ آليةٍ يكررها الإنسان في يومه؛ بل هو: عبادة عقل، وصدق ضمير، ونبل رسالة، وجمال روح.

والإتقان في حقيقته صورةٌ من صور الاستخلاف الراشد في الأرض؛ إذ خلق الله الإنسان ليعمر الحياة، ويشيّد الحضارة، ويقيم ميزان الحق والخير والجمال.

ولقد أدركت الأمم العظيمة أن نهضتها لم تُبنَ على كثرة الموارد وحدها، ولا على وفرة الأموال فحسب، وإنما قامت على إنسانٍ يعرف قيمة العمل، ويؤمن أن كل مهمة ـ مهما صغرت ـ تستحق أن تُؤدّى بأقصى درجات الجودة والإحكام؛ فالعامل الذي يخلص في صنعته، والمعلم الذي يتقن رسالته، والطبيب الذي يرحم مرضاه ويُحسن أداء واجبه، والمهندس الذي يراقب ضميره قبل حساباته، جميعهم يشاركون في بناء حضارةٍ قويةٍ متماسكة.

إنّ إتقان العمل ليس ترفًا فكريًا، ولا قيمةً ثانوية تُذكر في الخطب والمواعظ، بل هو ضرورة حضارية وأخلاقية ودينية وإنسانية. وإذا كانت بعض الأمم قد بلغت أوج قوتها بالعلم والتنظيم والدقة.

وإنّ الإسلام سبق إلى غرس هذه المعاني في النفوس منذ قرون طويلة، حين جعل الإحسان والإتقان خُلُقًا ملازمًا للمؤمن في كل شأن من شؤونه، ويمكن بيان ذلك من خلال ما يلي:

2- الإتقان في ميزان الإسلام:

جاء الإسلام ليبني الإنسان من داخله قبل أن يبني مظاهر الحياة من حوله، ولذلك لم يكن اهتمامه بالعمل مجرد اهتمامٍ مادي، بل ربطه بالعقيدة والضمير ومراقبة الله تعالى. وقد أرسى القرآن الكريم قاعدة التفاضل الحقيقية بين الناس بقوله سبحانه في سورة الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ فلم يجعل الميزان في كثرة الأعمال وحدها، وإنما في حسنها وجودتها وإحكامها.

ثم جاء النداء القرآني يوقظ النفوس إلى قيمة السعي والعمل، فقال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾؛ وكأن الآية تزرع في قلب الإنسان رقابةً لا تغيب، فيؤدي عمله بإخلاصٍ وصدق، لأنه يعلم أن الله مطلع على السرائر والظواهر.

هذا وقد لخّص النبي ﷺ هذا المعنى العظيم في قوله الشريف الذي رواه البيهقي في شعب الإيمان: «إنَّ اللهَ يحبُّ إذا عملَ أحدُكم عملًا أن يُتقنه»، وهذه كلمات قليلة المبنى عظيمة المعنى، تحمل في طياتها دستورًا أخلاقيًا كاملًا، يجعل الإتقان طريقًا إلى محبة الله تعالى.

كما رسّخ الإسلام معنى الإحسان الشامل، فقال سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وفي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله كتب الإحسان على كل شيء»،فالإحسان في التصور الإسلامي ليس مقصورًا على العبادة، بل يمتد إلى الصناعة، والتعليم، والطب، والإدارة، وكل ما يباشره الإنسان في حياته اليومية.

3- المسلمون الأوائل وإتقان العمل:

ضرب المسلمون الأوائل أروع الأمثلة في الإتقان؛ فبرعوا في الطب والفلك والهندسة والعمارة والزراعة والصناعة، لأنهم فهموا أن العبادة لا تنحصر في الشعائر وحدها، بل تمتد إلى كل عملٍ نافع يُؤدَّى بإحسان؛ ولذلك بقيت آثار حضارتهم شاهدًا على عظمة ذلك الفهم العميق لمعنى العمل الصالح.

إنّ الإسلام لا يقبل الفوضى، ولا يرضى بالتهاون، ولا يبارك الأعمال المرتجلة التي تُؤدّى بلا ضمير.

فإتقان العمل في المفهوم الإسلامي يعني الدقة، والأمانة، والانضباط، واحترام الوقت، وصيانة حقوق الناس، والبعد عن الغش والخداع. ومن يتأمل النصوص الشرعية يجد أن روح الإحسان تسري في كل شيء؛ في العبادة، والمعاملة، والقول، والعمل، حتى يصبح المسلم عنصرَ خيرٍ وإصلاح أينما حلّ.

4- الإتقان وبناء الحضارات:

ما من حضارةٍ ارتفعت إلا وكان الإتقان أحد أعمدتها الكبرى، وما من أمةٍ سقطت إلا حين تسلل إليها الإهمال، وضعف الشعور بالمسؤولية، واعتاد أبناؤها أداء الأعمال بلا روح ولا جودة. فالحضارات لا تُبنى بالأمنيات، وإنما تُبنى بالعقول الواعية، والسواعد المخلصة، والنفوس التي ترى في العمل رسالةً سامية.

وحين ننظر إلى الدول المتقدمة اليوم نجد أن سرّ قوتها الحقيقي لا يكمن في التكنولوجيا وحدها، بل في ثقافة الإتقان التي تسري في تفاصيل حياتها؛ في احترام المواعيد، ودقة الصناعة، وجودة التعليم، وحسن الإدارة، والالتزام بالقوانين.

وهذه المعاني تتناغم مع الهدي النبوي العظيم في تحمل المسؤولية؛ وفي صحيح البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته»؛ فالمسؤولية في الإسلام ليست منصبًا فحسب، بل أمانة تقتضي الإتقان والعدل واليقظة.

وليس المقصود بالإتقان أن يبلغ الإنسان الكمال المطلق؛ فالكمال لله وحده، وإنما المقصود أن يبذل أقصى ما يستطيع من جهدٍ ووعيٍ وإخلاص، وأن يرفض الاستسهال واللامبالاة. فربّ عملٍ صغير أتقنه صاحبه فباركه الله، وربّ مشروعٍ ضخم أفسده الإهمال فضاع أثره وخسرت الأمة بسببه الكثير.

إنّ العامل الذي يترك خللًا صغيرًا في مصنعه قد يتسبب في كارثة، والطبيب الذي يهمل تفصيلًا بسيطًا قد يعرّض حياة إنسان للخطر، والمعلم الذي يستهين برسالته قد يهدم أجيالًا كاملة دون أن يشعر. لذلك كان الإتقان أمانةً ثقيلة، لكنه في الوقت نفسه بابٌ واسع من أبواب الخير والنجاح.

5- البركة سر يصنعه الإتقان:

للإتقان أثرٌ عجيب في حياة الإنسان؛ فهو لا يمنحه النجاح الظاهر فقط، بل يفيض على قلبه طمأنينةً ورضًا وراحة ضمير. فالإنسان المتقن يشعر بقيمة ذاته، ويحسّ أنه يؤدي رسالةً نافعة، ولذلك يعيش حالةً من الانسجام الداخلي بين ما يؤمن به وما يفعله.

ومن بركة الإتقان أن الله يفتح به أبواب القبول بين الناس؛ فالقلوب تميل بطبيعتها إلى الإنسان الصادق المجتهد، وتثق فيمن يحترم عمله ويؤديه بأمانة. وقد وعد الله تعالى أهل الإحسان بالجزاء الكريم فقال سبحانه في سورة الكهف: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾، وهي بشارة ربانية عظيمة لكل من أخلص جهده وأجاد صنعته وابتغى بعمله وجه الله وخدمة الناس.

كما أن الإتقان يحقق البركة الاقتصادية والاجتماعية؛ إذ يقلل الهدر، ويرفع الإنتاجية، ويحسن جودة الخدمات، ويزيد من فرص التنمية والاستقرار، والأمم التي تعاني من ضعف الإتقان تدفع أثمانًا باهظة من وقتها ومواردها ومستقبل أجيالها.

ولعل أعظم البركات أن الإتقان يورث صاحبه الأجر في الآخرة؛ لأن الله لا يضيع عمل عاملٍ أحسن عمله وأخلص نيته، فكم من إنسانٍ رفعه الله بدرجاتٍ عالية لأنه أدى واجبه بصدق، ونفع الناس بإحسانه، وترك أثرًا طيبًا في الحياة.

6- بين الإتقان والضمير الحي:

لا يمكن أن يتحقق الإتقان الحقيقي في غياب الضمير؛ لأن الرقابة الخارجية مهما بلغت قوتها تبقى محدودة، أما الضمير الحي فهو الرقيب الذي لا يغفل. والإنسان الذي يراقب الله في عمله يظل حريصًا على الجودة حتى حين يغيب الناس من حوله.

إنّ أزمة كثير من المجتمعات ليست في نقص القدرات بقدر ما هي في ضعف الضمير المهني؛ إذ قد يمتلك الإنسان العلم والخبرة، لكنه يفتقد الأمانة والإخلاص، فيتحول العلم إلى وسيلةٍ للربح المجرد، ويصبح العمل أداءً شكليًا بلا روح.

وقد عظّم الإسلام قيمة العمل الشريف، ففي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «ما أكل أحدٌ طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده»، وفي هذا تعظيم لقيمة العمل المنتج، وربطٌ بين الكسب الحلال وكرامة الإنسان وعزة نفسه.

والضمير الحي يجعل الإنسان يشعر بأن كل مهمةٍ يؤديها هي جزءٌ من رسالته في الحياة، ولذلك لا يحتقر الأعمال الصغيرة، ولا يستهين بالتفاصيل الدقيقة؛ فالإتقان يبدأ من أبسط الأشياء؛ من كلمةٍ صادقة، وموعدٍ محترم، ووثيقةٍ دقيقة، ومعاملةٍ راقية، حتى يصل إلى أعظم المشروعات والإنجازات.

ولقد كان العلماء والمصلحون عبر التاريخ يدركون هذه الحقيقة؛ فخلّدهم الناس لا لأنهم امتلكوا المواهب فقط، بل لأنهم جمعوا بين العلم والإخلاص، وبين المهارة والأمانة، وبين العقل الراجح والضمير اليقظ.

7- الشباب وثقافة الإتقان:

إنّ أعظم ما تحتاج إليه الأوطان اليوم هو غرس ثقافة الإتقان في نفوس الشباب؛ لأن الشباب هم طاقة الأمة، وحملة مستقبلها، وصناع نهضتها القادمة، ولا يكفي أن نحفّزهم بالكلمات، بل يجب أن نربيهم عمليًا على احترام الوقت، وتحمل المسؤولية، وإجادة العمل مهما كان بسيطًا.

فالطالب الذي يغش في امتحانه يعتاد الطريق السهل، والموظف الذي يتهاون في عمله يضعف إحساسه بالمسؤولية، والعامل الذي لا يتقن عمله يشارك ـ ولو دون قصد ـ في نشر ثقافة الفشل.

أما الشاب الذي يتعلم منذ صغره قيمة الإتقان، فإنه ينشأ قويّ الشخصية، واثق النفس، قادرًا على الإنجاز الحقيقي.

ومن المؤسف أن بعض الناس يربطون النجاح بالمظاهر السريعة، فيبحثون عن الشهرة قبل الكفاءة، وعن المكاسب قبل الجدارة، بينما تؤكد سنن الحياة أن النجاح الثابت لا يقوم إلا على أساسٍ متين من الإتقان والصبر والتراكم المستمر.

إنّ الأمم التي تريد مستقبلًا قويًا لا بد أن تجعل من الإتقان ثقافة عامة تبدأ من البيت، وتمر بالمدرسة والجامعة، وتستمر في كل مؤسسة وميدان عمل.

لكن عندما يتحول الإتقان إلى وعيٍ جمعي، تتغير صورة المجتمع كله، ويصبح النجاح نتيجة طبيعية لا حدثًا استثنائيًا.

8- الخاتمة:

يبقى إتقان العمل من أعظم القيم التي تسمو بالإنسان فردًا ومجتمعًا؛ فهو روح الحضارات، وسرّ النهضات، وعنوان الأمانة، ودليل نبل النفس، وما أحوج عالمنا اليوم إلى إعادة الاعتبار لهذه القيمة العظيمة في زمنٍ كثرت فيه المظاهر، وقلّت فيه المعاني.

إنّ الإتقان ليس مجرد مهارةٍ مهنية، بل رسالة أخلاقية وإنسانية وإيمانية، تُصلح الدنيا وتثمر خير الآخرة، ومن يتقن عمله بإخلاصٍ وصدق، فإنه لا يبني نجاحه الشخصي فحسب، بل يشارك في بناء وطنه، وخدمة مجتمعه، وترك أثرٍ طيبٍ يبقى بعد رحيله.

فليكن لكل واحدٍ منا نصيبٌ من هذا المعنى العظيم؛ أن يؤدي عمله وكأنه يزرع في الأرض نورًا، أو يبني في الحياة جسرًا من الخير، أو يترك خلفه أثرًا يرضي الله وينفع الناس.

فالإتقان ليس رفاهية، بل هو طريق البركة، ومفتاح الكرامة، وجمال الدنيا، وخير الآخرة.

ونسأل الله تعالى بركة السعي وحسن العمل وخير النجاح والفلاح في الدين والدنيا والآخرة.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.